عصمــة النبــي الأكــرم (ص):

ونقض بعض الشبهات المثارة حولها(*)

أجمع علماء المسلمين الشيعة على عصمة الأنبياء وتنزيههم عن الآثام والمساوئ كافة، كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها، قبل إعلان النبوة وبعدها.

أما الآيات والأخبار الموهمة بصدور العصيان منهم، ونفي العصمة عنهم فإنها مؤولة ومحمولة على ترك الأولى والأجدر بهم، فإنهم لما كانوا في قمة الإيمان واليقين، وفي الأفق الأعلى من البصيرة والعلم، تجدهم والهين بطاعة الله تعالى، مولعين بعبادته وتمجيده، متطلعين بعقولهم وقلوبهم إلى رضوانه وزلفاه، فإذا انشغلوا بالأعمال المباحة كالأكل والشرب والنوم ونحو ذلك مما يصرفهم عن أشواقهم وتطلعاتهم الروحية، ويعيقهم عن التلذذ بعبادة الله ومناجاته ــ حسبوا ذلك سيئة وذنباً يستوجبان الندم والاستغفار كما قال (ع): "**حسنات الأبرار سيئات المقرّبين**".

نعم أجاز الشيخ الصدوق وأستاذه محمد بن الحسن بن الوليد (السهو) على النبي بحجة أن سهوه مخالف لسهو الناس:

فسهو النبي عندهما منبعث عن إرادة الله عزّ وجل، فإنه يسهيه إظهاراً لضعفه البشري، كي لا يؤلهه الناس ويعبدونه من دون الله.

وسهو الناس من الشيطان، وليس له سلطان على الأنبياء والأوصياء (ع).

وهذا الرأي مخالف لإجماع العلماء الشيعة ودلائل النقل والعقل، فهو:

١. ينافي الآيات القرآنية الدالة على نزاهة النبي من السهو والنسيان:

﴿سنقرئك فلا تنسى﴾، ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾، ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾.

٢. ويخالف الأخبار الصحاح المعتبرة عند جمهرة الإمامية والناطقة بنفي السهو عنهم.

٣. يناقض حكم العقل بنزاهتهم عن ذلك، إذ لو جاز السهو على النبي لألبس على الناس أمره، ولم يميزوا بين الصادر منه عمداً أو سهواً، الأمر الذي يوجب ضعف الثقة به وعبث إرساله، وهو محال.

والقول بعصمة الأنبياء (ع) هو من عقائد الإمامية المسلمين ومبادئهم الأصيلة.

وما تلك الشبهات حول عصمة الأنبياء (ع) إلا تجنياً على حصانتهم وقدسيتهم المترفعة عن الآثام، اختلقها بعض الكتّاب قديماً وحديثاً خاصة المستشرقين منهم جهلاً منهم بواقع الأنبياء وضرورة عصمتهم، وتوهماً بظواهر الآيات الكريمة الموهمة بتجويز الخطايا عليهم.

(*) هذه المقالة مقتطفة بتصرّف من كتاب "أصول العقيدة"، الجزء الثاني، للسيد مهدي الصدر.

ولو أنهم تفهموا المغزى الأصيل لتلك الآيات، وتحروا تفسيرها الحق لما تجرأوا عليهم بتلك التجنيات وهم منها براء، كما افترى القائلون بالتجسيم على الله عزّ وجل بإضفاء سمات البشرية عليه ونسبة الأعضاء إليه كالوجه واليدين ونحوهما من المفاهيم المجازية الواردة في القرآن الكريم، بالرغم من استحالة ذلك وامتناعه عليه، ﴿**ليس كمثله شيء**﴾.

لذلك انبرى بعض أعلامنا في الدفاع عن عصمة الأنبياء (ع) وتنزيههم مما اتهموا به من ضروب الأقاويل والاختلاقات، واستعراض ذلك يتطلب بحثاً مسهباً.

بيد أننا على سبيل المثال نعرض فيما يلي نموذجاً من الشبهات حول عصمة نبينا الأعظم (ص)، مشيرين إلى زيفها وخطئها.

الآية الأولى:

قال تعالى: ﴿**ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك**﴾ [الانشراح: ٢].

استنتج المناقشون في عصمة النبي (ص) من ظاهر الآية الكريمة جواز المعصية عليه ووقوعها منه جهلاً منهم بواقع الوزر ومفاده الصحيح المقصود.

ومن الثابت في اللغة أن (الوزر) هو الثقل المرهق، ومن هنا حسن تشبيه الذنب بالوزر، لما يستشعره المؤمن الحق باقترافه من فداحة الهم وثقل القلق والخوف من عقاب الله عزّ وجل. وبهذا المقياس استعير (الوزر) لكل ما يعنت الإنسان ويرهقه من ضروب الهموم والمخاوف.

وقد كان الرسول (ص) ــ قبل البعثة ــ يعيش حياة مريرة مليئة بالأسى والكرب من جاهلية قومه وتخبطهم في ظلام الكفر ومتاهات الضلال وانهيار قيمهم الدينية والأخلاقية والاجتماعية، ما حبب إليه اعتزالها والتهرب من محيطها إلى غار حراء حيث الفضاء الرحب، والسكينة الشاملة، ومسارح الفكر المتطلع الوثاب واستعراض الآيات الكونية، واستلهام مفاهيمها الرائعة.

ولما ابتعثه الله عزّ وجل رحمة للعالمين، وأنقذ الناس به من الظلمات إلى النور، ومن شقاء الجاهلية إلى سعادة الإسلام، استشعر (ص) آنذاك راحة الضمير وبهجة النفس، وتسرّت عنه تلك الهموم الفادحة التي كانت تساوره من ضلال قومه ونعراتها الجاهلية، فجاءت سورة الانشراح مهنئة ومباركة مركزه الرسالي الرفيع وجهاده الجبار، ومسرية عنه همومه وأحزانه، ومضت تعدد نعم الله تعالى عليه، ﴿**ألم نشرح لك صدرك**﴾ بنور الوحي وشرف النبوة ﴿**ووضعنا عنك وزرك**﴾ وثقلة همك الباهظ المرهق في سبيل أمّتك ﴿**ورفعنا لك ذكرك**﴾ يهتف به المسلمون في المآذن، ويردده المصلون في الفرائض كل يوم خمس مرات.

وراحت السورة بعد هذا تعزز معنويات النبي (ص) وتعينه على مواجهة الأزمات، والتمرس على الخطوب، ﴿**فإن مع العسر يسرا ❁ إن مع العسر يسرا**﴾.

كل ذلك برهان صادق أن المراد بـ (الوزر) في الآية ثقل الهم وفداحته لقرينة ذكر اليسر مرتين بعد العسر، والوعد بالفرج بعد الشدة، دون ما توهمه القاصرون بالذنب والعصيان.

الآية الثانية:

قال تعالى: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾ [الفتح: ٢].

وهكذا تصور المجادلون في العصمة مقارفة النبي (ص) المعاصي والآثام توهماً بظاهر الآية الكريمة، ولو أنهم تعمقوا في سياقها ومفادها الأصيل لعلموا أن المعني بذنبه في الآية ذنبه (ص) عند مشركي قريش وكفار العرب الذي يعتبرونه أعظم الناس ذنباً وأفظعهم جناية وجرماً، فهو الذي سفه عقولهم، وحطم أصنامهم، وقمع طغيانهم، ونسف ما كانوا يعتزون به من ضروب الأعراف والتقاليد الجاهلية، مستبدلاً بها نظم الإسلام ومبادءه الخالدة.

هذا هو واقع الذنب في الآية الكريمة يجلوه سياقها ويبرزه منطقها البلاغي، فلا يعقل أن يكون الفتح المبين علة لغفران ذنوبه (ص) التي يستحق على افتراضها جدلاً لوم المولى عزّ وجل وتوبيخه، حيث لا مساس ولا مناسبة بين الفتح والغفران، فلو لم يتحقق الفتح آنذاك أكان من العدل أن يحرم سيد الرسل وخاتم الأنبياء (ص) من غفران الله تعالى وآلائه وألطافه رغم جهاده الجبّار، وتضحياته الجسيمة في سبيل الإسلام.

وهذا ما يؤكد انصراف الذنب وتبادره إزاء أعدائه والحاقدين عليه، الذين بهرتهم أخلاقه الكريمة، واستهواهم عفوه الشامل وصفحه الكريم ورأفته البالغة وحنانه الجم، مما طهّر قلوبهم من دوافع الحقد والغضب عليهم، وحفزهم على الإيمان برسالته والاستماتة في حمايتها ونشرها في الآفاق، وقد أوضح ذلك الإمام الرضا (ع) في جواب المأمون حين سأله عن الآية الكريمة: ﴿**ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر**﴾، فقال (ع): "**لم يكن أحد عند مشركي أهل مكة أعظم ذنباً من رسول الله (ص)، لأنهم كانوا يعبدون من دون الله ثلاثمائة وستين صنماً، فلما جاءهم بالدعوة إلى كلمة الإخلاص، كبر عليهم وعظم، وقالوا: ﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب ❁ وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾** [ص: ٥ــ٧].

فلما فتح الله عز وجل على نبيه محمد (ص) مكة قال له: يا محمد إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر عند مشركي أهل مكة بدعائك إلى توحيد الله عزّ وجل فيما تقدم وما تأخر، لأن مشركي مكّة أسلم بعضهم، وخرج بعضهم عن مكة، ومن بقي منهم لم يقدر على إنكار التوحيد عليه إذا دعا الناس إليه، فصار ذنبه في ذلك مغفوراً بظهوره عليهم، فقال المأمون: لله درّك يا أبا الحسن...".

وربما قيل أن نزول سورة الفتح كان قبل فتح مكة وبعد صلح الحديبية، فكيف يحمل على الأول؟!

وجواب ذلك: أن من المفسرين من فسّر الفتح بفتح خيبر لوقوعه بعد الصلح، وفسّره آخرون بفتح مكة معللين نزول السورة قبله: بأنها نزلت مبشرة للنبي (ص) على فتحها وانتصاره على أهلها على غرار الآية الكريمة:

﴿**لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً**﴾ [الفتح: ٢٧].

والمراد بالفتح القريب هو فتح خيبر.

الآية الثالثة:

قال تعالى: ﴿**ووجدك ضالاً فهدى**﴾ [الضحى: ٧].

فسّر البعض (الضلال) في الآية الكريمة بضلال العقيدة والنزوع إلى عبادة الأصنام جهلاً أو تجاهلاً بمدلول الضلال، وجواز إطلاقه على معان مختلفة تتمايز حسب المراد منها:

فهو يطلق على التيه والضياع فيقال مثلاً: ضلّ الطريق إذا تاه وضيع الجادة، وهذا هو أظهر المصاديق المدرجة في الآية الكريمة، حيث أورد الرواة أن النبي (ص) "ضل في صباه في بعض شعاب مكة فرده أبو جهل إلى عبد المطلب.

وقيل أضلته حليمة عند باب مكة حين فطمته وجاءت به لترده إلى عبد المطلب.

وقيل في طريق الشام حين خرج به أبو طالب"[١].

ويطلق الضلال على الحيرة والتحير، فيقال: ضلّ عن الرشد إذا احتار في أمره ولم يحسن التصرف فيه. ومن هذا الإطلاق وعلى ضوئه نتبين مغزىً وجيهاً آخر للآية، وذلك أن النبي (ص) كان قبل البعثة يستشعر الحيرة والقلق المضنيين من جاهلية قومه وضلال عقائدهم وتصوراتهم، وانحراف سلوكهم وتقاليدهم، ما جعله متطلعاً بقلبه الكبير، وروحه الواعية المستلهمة إلى هداية السماء وريادتها المنقذة من ضياع الجاهلية وشقائها المرير، فأنجده الله تعالى وهداه بنور النبوة ومفاهيم الوحي وشرعة الإسلام الكافلة الخالدة.

ويطلق الضلال على مفاهيم أخرى ذكرها المفسرون[٢]، وكلها بعيدة عن زعم المناقش، وناقضة له دعواه، فكيف قصر الآية على تفسيره الخاطئ وفهمه المنحرف.

والمفهوم من سياق الآية ولحسن خطابها أنها نزلت مذكرة النبي (ص) ومعددة نعم الله تعالى وآلاءه عليه: ﴿**ألم يجدك يتيماً فآوى**﴾ بأن أتاح لك من آواك ورعاك أكرم وأجمل رعاية وإيواء ﴿**ووجدك ضالاً**﴾ قبل النبوة في شعاب مكة أو في طريق الشام ﴿**فهدى**﴾ فهداك إلى جدك عبد المطلب وعمك أبي طالب، أو بنور النبوة ومفاهيم السماء، ﴿**ووجدك عائلاً**﴾ معوزاً، ﴿**فأغنى**﴾ فأغناك ويسّر لك موارد الرزق ومآرب الحياة.

فليس المراد من الضلال ما توهمه المكابر من ظاهر الآية وسوّل له اتهام الرسول (ص)، وإنما المراد منه ما قررناه على ضوء أعلام المفسرين وشراح القرآن الكريم.

الآية الرابعة:

قال تعالى: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى**﴾ [النجم: ١٩ـ٢٠].

وهكذا طعن أعداء الرسول (ص) في عصمته، وتقوّلوا عليه افتراءً وبهتاناً أنه مدح آلهة قريش وصبا إلى أصنامهم، حيث قرأ (ص) بعد قوله تعالى: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى**﴾ "تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى"، وزعموا أن قريشاً لما سمعت ذلك المدح ابتهجت ابتهاجاً بالغاً، وسجدت لإطراء آلهتها عندما سجد الرسول والمسلمون في نهاية السورة.

وهذا افتراء على حصانة الرسول (ص) وقدسيته نظير افترائهم عليه بالشرك وعبادة الأصنام في الآية السالفة.

وركزوا هذا الدس المزعوم على قصة خرافية واهية السند مختلة المضمون لم تؤثر عن أحد الصحابة أو التابعين غير ابن عباس.

ومن المؤكد عند أعلام الدراية والحديث أنه لم يكن مولوداً وقت افتراض القصة، أو كان طفلاً لا يتجاوز عمره السنتين أو الثلاث، والدليل على اختلاق هذه الأسطورة ما جاء في سياق الآية المعنية وتلو ذكرها قال تعالى: ﴿**إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى**﴾ [النجم: ٢٣].

وهذه الآية تنفي نفياً قاطعاً سجود المشركين بسجود المسلمين لعلم الأولين بلغة القرآن ومحتوى الآية المعرب عن التحقير بآلهتهم والسخرية منها.

هذا إلى أن التعصب أضل هؤلاء عن رعاية الآيات المتضافرة الناطقة بعصمة الرسول (ص) ونزاهته مما اتهموه وتجنوا به عليه كقوله تعالى: ﴿**ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين**﴾ [الحاقة: ٤٤ــ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿**..قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليّ**﴾ [يونس: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿**وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى**﴾ [النجم: ٣ــ٤].

وقوله تعالى: ﴿**سنقرئك فلا تنسى**﴾ [الأعلى: ٦].

وقوله تعالى: ﴿**إنا نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩].

وحسبنا هذه الآيات الكريمة برهاناً على تفنيد أسطورة الغرانيق وزيفها واختلاقها.

الآية الخامسة:

قال تعالى: ﴿**وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وظهرت حول هذه الآية المباركة مزاعم مرجفة حول عصمة الرسول (ص) وسمو قدسيته، زاعمة أنه (ص) جاء ذات يوم إلى دار غلامه المعتق زيد بن حارثة، ورمق زوجته الحسناء زينب بنت جحش، فهواها وأغرم بها ما حفز زيداً على طلاقها محاباة

للنبي (ص) وإيثاراً له على تزوجها بعد انفكاكها منه، وكان (ص) ـ حسب زعمهم ـ يخفي إعجابه بها ورغبته منها مخافة نقد الناس.

وهذا ادعاء زائف ممتنع على الرسول (ص) لوجوه:

١. إن التطلع إلى أعراض الناس عامة والمحصنات من النساء خاصة أمر يستبشعه الضمير الحر، والوجدان الغيور، ويستنكره الشرع والعرف، ويأباه على النبلاء الأخيار فضلاً عن الأنبياء (ع)، فكيف لفقوا ذلك على سيد الرسل والمثل الأعلى في جميع الفضائل والمكرمات؟!

٢. لقد كانت زينب بنت جحش من قريبات النبي (ص) وبنات عمه، وبحكم هذه القرابة فإنها لم تكن مجهولة عنده أو خافية عليه لينظرها نظرة إعجاب وهيام، وهو الذي ارتأى تزويجها من زيد، وجدّ في إقناعها به بالرغم من امتناعها عنه لتخلفه عنها حسباً ونسباً. فلو كان (ص) مولعاً بها راغباً في تزوجها ـ كما يزعمون ـ فلم لم يبادر إلى تحقيق مأربه، ويستأثر بزواجها على غيره؟! وهو أحق وأولى بها ممن عداه.

٣. إن زيداً لم يطلق زينب محاباة للنبي (ص) وتزلفاً إليه، وإنما أتخذ هذا الإجراء الحاسم تخلصاً من زوجته المشاكسة، وتهرباً من حياته الزوجية المضطرمة بصنوف النكد والتنغيص، ما دفعه إلى شكايتها لدى الرسول (ص) لاستصلاحها وملافاة تطاولها عليه، فأوصاه (ص) برعايتها والحفاظ عليها، ﴿**أمسك عليك زوجك**﴾.

ولما أعياه الأمر، وآيس من تقويمها واستمالتها إليه عمد إلى طلاقها وفكاكها من عصمته.

٤. وبعد تصرم عدتها تزوجها النبي (ص) مستهدفاً بذلك أمرين خطيرين:

١. تلطيف مشاعرها الملتاعة، وجبر قلبها الكسير على ترغيبه الملح لها في التزوج بزيد وإقناعها بعد امتناعها من ذلك.

٢. تشريع نكاح زوجات الأبناء الأدعياء بعد طلاقهن إبطالاً للأعراف الجاهلية القاضية بتحريم ذلك كما تقرره الآية الكريمة: ﴿..**فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

الآية السادسة:

قال تعالى: ﴿**إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيماً واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيماً**﴾ [النساء: ١٠٥ـ١٠٦].

تذرع الطاعنون في عصمة النبي (ص) لأمره بالاستغفار في الآية الكريمة توهماً بظاهرة التلازم بين الاستغفار وسبق المعصية منه.

ودحضاً لهذا الفهم الواهي، يحسن بنا أن نلم إلمامة قصيرة في تفسير هذه الآية وبواعث نزولها.

لقد ذهب بعض المفسرين: أنها نزلت في طعمة الأنصاري لما سرق درعاً لجار له، ثم اتهم بسرقتها رجلاً يهودياً، وقد أثار هذا الحادث خصاماً عنيفاً بين قومي الرجلين،

فاستعدى قوم الأنصاري على اليهودي عند الرسول (ص) طالبين تجريمه بالسرقة، فنزلت آنذاك الآية: ﴿**ولا تكن للخائنين خصيماً**﴾ أي لا تكن مخاصماً للبريء عن الجاني.

وأما الاستغفار في الآية فلا تلازم بينه وبين الذنب لتضافر الأدلة والبراهين العقلية والنقلية على عصمة الأنبياء (ع) ونستطيع أن نستجلي واقع الاستغفار من الوجهين التاليين:

١. إن النبي (ص) نزع إلى مناصرة الأنصاري وتصديقه حملاً على ظاهر إسلامه، وشهادة قومه ببراءته، ما حفزه على إدانة اليهودي والحكم عليه، بيد أن الله تعالى أطلعه على اختلاق الشهود وشهادتهم المزورة، ما جعل النبي (ص) يتحسس أبعاد حكمه ونتائجه الخطيرة.

وحيث كان (ص) المثل الأعلى للحكمة والعصمة من جميع الزلات والأخطاء اعتبر ذلك تقصيراً منه يجدد الاستغفار عليه كما اعتبر "**حسنات الأبرار سيئات المقربين**".

وهذا ما يشهد به سياق الآيات التالية للآية المعنية: ﴿**ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمّت طائفة أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء..**﴾ [النساء: ١١٣].

ومفاد الآية: لولا أن حباك الله فضل النبوة ورحمة العصمة لهمّت طائفة أن يلقوك في مزالق الخطأ والاشتباه، بيد أنهم لا يضرونك لرعاية الله لك وتسديده إياك بالعصمة والحصانة الروحية.

٢. وقد يعلل الاستغفار ويعنى به استغفاره (ص) لأولئك الذين مالأوا طعمة وشهدوا زوراً ببراءته، وخانوا بذلك أمانة الحق والعدل لقرينة ما جاء في سياق الآية اللاحقة: ﴿**إن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً**﴾.

الآية السابعة:

قال تعالى: ﴿**عبس وتولى * أن جاءه الأعمى * وما يدريك لعله يزّكى**﴾ [عبس: ١ـ٣].

وهكذا زعم بعض المفسرين أن هذه الآية الكريمة جاءت موبخة للنبي (ص) على تجهمه وعبوسه في وجه (ابن أم مكتوم) ذلك الأعمى البائس لما جاءه ملتمساً منه التوجيه والإرشاد.

وهذا ادعاء يستنكره ويفنده كل من درس حياة الرسول (ص) وعرف أخلاقه المثالية، ورأفته البالغة بالمؤمنين وعواطفه السامية تجاههم.

ومن استنطق الآية واستجلى مفادها وجدها مفيدة للنبأ والإخبار المجردين من كل تشخيص أو تصريح بالمخبر عنه، وقد صرح العارفون بدراية الحديث: إن الرواية الواردة بنزول الآية في النبي (ص) هي من الروايات المقطوعة السند، والمتضاربة في النقل، ما يجعلها في عداد الأساطير المختلقة، وهي معارضة برواية أوثق منها تنفي نزولها فيه (ص) وتعزوها إلى غيره[3].

وفي الآية قرينتان حالية ومقالية تنفيان اختصاصها بالنبي (ص):

القرينة الأولى: أنه (ص) لم يكن معروفاً أو متخلقاً بالتجهم والعبوس إزاء أعدائه الكافرين فضلاً عن أوليائه المسترشدين به والمقتبسين من إشعاعه وإلهامه.

والقرينة الثانية: الآية النازلة تلو الآية المعنية وخلال سياقها ﴿**أما من استغنى * فأنت له تصدى * وما عليك ألا يزكى**﴾ [عبس: ٥ـ٧].

ومن المستبعد جداً أن يخاطب النبي (ص) بمحتوى هذه الآية وأسلوبها التقريعي على احتفائه بالأثرياء وإعراضه عن البؤساء، وهو الذي تركزت فيه أسمى العواطف النبيلة وأرقها، والحنان المثالي الجم بالفقراء والمعوزين وتلطيف مشاعرهم ومواساتهم في الزهد والحرمان.

وكيف تعنيه الآية ﴿**وما عليك ألا يزّكى**﴾ وهو المجاهد الأعظم المتفاني في هداية الناس وتوجيههم وجهة الخير والصلاح، ثم لا يبالي ولا يكترث بتزكية إنسان ودعوته إلى الإسلام.

والقرآن نفسه يفند ذلك الزعم الواهم في نسبة العبوس إليه بتمجيد أخلاقه وإطراء مداراته للناس، قال تعالى: ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [القلم: ٤].

وقال تعالى: ﴿**فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك**﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وقال تعالى: ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [التوبة: ١٢٨].

أليست هذه الآيات الكريمة برهاناً ساطعاً على ترفع النبي (ص) ونزاهته من نسبة العبوس إليه وعصمته عن منافيات الخلق الرفيع والخصائص النبوية الرائدة؟!

الآية الثامنة:

قال تعالى: ﴿**فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فسأل الذين يقرأون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين * ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين**﴾ [يونس: ٩٤ـ٩٥].

تذرع أعداء الإسلام بهذه الآية على اتهام النبي (ص) بالشك في القرآن الكريم واتخذ ذلك وسيلة للتهريج والتنديد بعصمته!

وهذا تصور خاطئ موغل في خرافته واختلاله، وكيف يجوز عليه (ص) هذا الاختلاق وهو سفير الله إلى البشر، وأمينه على الوحي، ورائده إلى الإيمان.

ولو جاز ذلك على الأنبياء وهم قادة الفكر، ومنارات الهداية، لانهارت شرائع السماء وتلاشت قيم المرسلين، وعد إرسالهم عبثاً.

وكيف يحرض القرآن خاتم الأنبياء (ص) على استعلام أهل الكتاب عن صحة ما جاء في الذكر الحكيم، دفعاً لخوالج الشك الموهوم فيه، وهم كافرون برسالته وكتابه، والمسلمون منهم لا يعتد بشهادتهم عن كتبهم وأسفارهم لشوبها بالدس والتحريف. وتصدير الآية بأداة الشرط وجزائها لا يعرب عن اختلاج الشك في ذهن الرسول (ص) أو

وقوع تساؤله من أهل الكتاب، وكلما أفادته الآية تعليق افتراض الشك على مساءلة الكتابيين مجرداً من جميع الدلائل المشعرة بتحقق أحدهما منه (ص).

ومخاطبة النبي (ص) بالآية تمثيلاً لأسلوب: "إياك أعني واسمعي يا جارة" نظير مخاطبة القرآن لعيسى (ع) ﴿**أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين**﴾ فالخطاب في الظاهر للسيد المسيح والمراد به أمّته.

الآية التاسعة:

قال تعالى: ﴿**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلاً**﴾ [الإسراء: ٧٣].

اتخذ المهرجون هذه الآية وسيلة للغمز في عصمة النبي (ص) واتهامه بالتلاعب بالقرآن الكريم وافترائه على الله سبحانه!!

وهذا نظير تهجمهم عليه في قصة الغرانيق التي عرفناك أسطورتها الخرافية، كأنهم يستعذبون إشاعة التهم والأراجيف حوله ولو كانت هراءً فاضحاً، ولو تأملوا سياق هذه الآية لأدركوا في أعقابها النص الصارخ بعصمة الرسول (ص) وحصانته الروحية، قال تعالى: ﴿**ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً**﴾.

ومن الواضح أن أداة (لولا) تفيد أن وجود الشيء مانع من وقوع شيء آخر، نحو "**لولا علي لهلك عمر**" أي وجود علي مانع من حدوث الهلاك لعمر، وهكذا الآية ﴿**ولولا أن ثبتناك..**﴾ معناه ثبتنا قلبك بالعصمة والتسديد الإلهيين لأوشكت أن تسكن إليهم بعض السكون، ولكن عصمناك عن ذلك.

وقد جاء في أسباب نزول الآية ﴿**وإن كادوا ليفتنونك**﴾ أن قريشاً قالت للنبي (ص): كف عن شتم آلهتنا، وتسفيه أحلامنا، واطرد هؤلاء العبيد والسقاط الذين رائحتهم رائحة الضأن حتى نجالسك ونسمع منك، فطمع في إسلامهم فنزلت الآية.

وقد عرضنا في موضوع الآية السادسة الآيات المتضافرة الناطقة بعصمة الرسول (ص) ونزاهته من هذا الافتراء الفاضح.

الهوامش

١. "الكشاف"، للزمخشري، ج٤، ص٧٦٨.
٢. راجع "مجمع البيان" للطبرسي، ج١٠، ص٥٠٥ــ٥٠٦.
٣. "الهدى إلى دين المصطفى" للحجة البلاغي ره، ص١٥١.